



من الصعوبة بمكان تطبيق السيناريو اليمني في سوريا لجهة نقل صلاحيات رئيس الجمهورية إلى نائبه وبدء الإجراءات المتعلقة بمرحلة انتقالية تفضي إلى إجراء انتخابات عامة وصياغة دستور جديد وإعادة هيكلة مؤسسات الدولة والجيش والأجهزة الأمنية! فالحالتان مختلفتان، وهناك فوارق متعددة بين الوضعين اليمني والسوسي، والقصد أن المقدمات والحيثيات وتاليها العوامل التي فرضت الحل في صنعاء، هي غيرها في دمشق!

بداية، ثمة تباين مع الحالة اليمنية هو البنية التكوينية للحكم في سوريا التي يحتل فيها الرئيس عصب السلطة ومركز تماسكتها ومحركها، والتي استندت تاريخياً إلى نموذج الدولة الشمولية المتدخلة في أدق تفاصيل الحياة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، عبر أجهزة أمنية وعسكرية واسعة الصلاحية، ما يقود إلى تحسب هذه الأجهزة من أن تفضي إزاحة الرئيس إلى انهيار كامل للسلطة ودوائرها المقررة وإلى تغيير جذري يطيح بصورة تامة بموقعها ودورها وبما خلقته من نفوذ وشبكات وامتيازات.

خاصة أن الفئة الحاكمة قد نجحت عبر تاريخها الطويل في تصفية كل من تعدد منافساً أو مؤهلاً لبناء مركز ثقل أو موقع قوة يخفي وراءه مشروعياً سياسياً خاصاً، وأيضاً في انتخاب أنصارها من المرتهنين والفاشدين الذين لا مكان لهم في مجتمع صحي ودولة ديمقراطية، بما يعني أن النظام السوري في خصوصيته ينتمي إلى نوع الأنظمة العاجزة عن تقديم التنازلات والتي لا تقبل أي مساومة على بقائها أو أي تعديلات جذرية في تركيبة السلطة يمكن أن تقصي أهل رمز فيها، والمرجح أن تخوض معركتها في الحكم إلى النهاية كمعركة وجود أو لا وجود، وأن تتصرف أركانها وكأن ليس من رادع يردعها في توظيف مختلف أدوات القمع الأمنية والعسكرية لإخماد الثورة وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه.

وأيضاً على مسافة من الوضع اليمني القبلي التكوين الذي أفضى بسرعة إلى إعلانات ذات طابع عشائري لكتل قبلية كبيرة تؤيد مطالب الشباب الثائر وقدمت لهم كل أشكال الدعم، ما أدى إلى حصول انقسام مجتمعي، أفقى وعمودي على حد سواء، ضغط وخلق قناعة لدى مختلف الأطراف بأنه لا يمكن لأي منهم منفرداً حسم الصراع عسكرياً وتحقيق النتائج التي يرجوها، وأكره الجميع على التعاطي بإيجابية مع الحل التفاوضي.

وهذا من الإنصاف القول إن الأطراف السياسية الرئيسة داخل وخارج مؤسسات الدولة والمؤثرة في اليمن تعاملت بحس

عال من المسؤولية وتعاونت لإنجاح الاتفاق. بينما ثمة خصوصية في التركيبة الاجتماعية السورية لجهة التعدرية الإثنية والدينية والطائفية، وتفاوت مواقف هذه المكونات من مسار الثورة وعملية التغيير وأفاقها، وتحديداً خوف بعضها على هويته ونمط عيشه من احتمال استئثار بديل إسلامي بالسلطة، ما يفسر في ضوء طابع الكتلة الشعبية الكبرى المشاركة في الثورة، بقاء قطاعات من المجتمع السوري في وضع الحياد والسلبية ولنقل متربدة أو محجنة عن الانخراط فيها، ولم يوفر النظام جهداً في مغازلتها وإثارة مخاوفها والرهان عليها لخلق صورة عن نفسه بأنه حامي حماها وأن استمراره ضرورة حيوية لها، وتالياً لعزل الحراك الشعبي ومحاصرته والطعن بوطنيته وشموليتها.

وأيضاً من المفارقات أن اليمن شهد تحت يافطة الإصلاحات السياسية التي أعلنتها علي عبد الله صالح مستوى من النشاط السياسي ودوراً ملماوساً للأحزاب المعارضة والصحافة الحرة، وعرف تشكيل حكومات ائتلافية، كما جرت فيه عدة انتخابات مقبولة نسبياً بالمعايير الديمقراطية أظهرت خلالها المعارضة بعضاً من حضورها، بينما لم تشهد سوريا أوضاعاً مماثلة، بل كانت شعارات الإصلاح والتحديث والتطوير مجرد إعلانات شكليّة كرست من ورائها المناخات الأمنية وأساليب القمع وخنق المعارضة والرأي الآخر والصحافة الحرة، كما لم تعرف البلاد إلا الانتخابات والاستفتاءات الصورية التقليدية.

والقصد أن ثمة تفاعلاً بين المعارضة والشارع كان قائماً في اليمن وغائباً في سوريا، الأمر الذي انعكس بعلاقة وثيقة بين الحراك الشعبي اليمني والقوى السياسية وأهلها أن تفاوض عنه، زاد الأمر وضوحاً الدور الهام الذي لعبته ساحات التغيير في اليمن في تعزيز التواصل بينهما وفي رسم مسار الثورة، خاصة بعد فشل النظام اليمني في قمع المعتصمين بقوة السلاح وإخراجهم من الساحات، بينما لا تزال المسافة قائمة بين الحراك الشعبي في سوريا وقيادات السياسية أنهكها القمع والإقصاء، مسافة لم يصر إلى ردها رغم مرور أكثر من 15 شهراً على انطلاق الثورة، ناهيك عن أن النظام السوري نجح في سحق كل محاولة مهما تكن بسيطة للتجمع في ساحة رئيسة وأفرط إلى حد مرعب في استخدام لغة الحديد والنار لإجهاض غير محاولة للاعتصام في حماة وحمص ودمشق.

وهنا لا يمكن أن يفوتنا التباين الكبير في شدة القمع والتكميل بين الوضعين اليمني والسوسي، فأدوات القمع بقيت متحسبة في اليمن ولم تتجاوز خطوطاً حمراء، من غير المألوف تجاوزها مع الشعوب، ونضيف أن انشقاق جزء كبير من الجيش اليمني بصورة عمودية حقّ نوعاً من التوازن العسكري الرادع أمام رغبة السلطة للتوغل في القمع والقهر، ناهيك عن أن أهم القيادات العسكرية في الجيش كانت قد أبلغت الرئيس علي صالح مسبقاً بأنها لن تتورط في ذبح أبناء الشعب دون أن تتعرض للاعتقال أو التصفية!

بينما تبدو الحالة السورية وكأن ثمة حرباً حقيقة تخاص ضد الناس لخمام احتجاجاتهم، وعلى تنفيذ هذا الخيار تنافست الأجهزة كأنها في سباق لفرض هيمنتها بمزيد من إظهار قسوتها، وأطلقت مخيلتها لابتکار كل جديد من شأنه إرهاب البشر، خاصة الإفراط في استخدام القوة والعنف لإشعار الناس بعدم جدواً ما يقومون به وأنه ضرب من المحال تجاوز الحال القائمة وتغيير الأوضاع، ثم التفنن في إرهاق البشر واستنزاف قوتهم وقدرتهم على الاستمرار، لم يقف الأمر عند الاعتقالات الواسعة والخشائية، وأساليب التعذيب المخيفة، ولا عند حصار واقتحام بعض المناطق والأحياء والضغط على حاجاتها وخدماتها وشروط معيشتها، بل تجاوزه إلى حد استخدام القصف والتدمير العشوائي للمدن والمناطق الخارجة عن السيطرة.

ولا تغير هذه الحقيقة حالات الانشقاق الفردية أو لجماعات محدودة من صفوف الجيش والأجهزة الأمنية، بل زادت من عنف السلطة وشدتها، ما يعني أن القمع العنيف الذي مارسته السلطة أفقدها القدرة على إعادة إنتاج الحد المقبول من الشرعية

السياسية، ولنصل أوصى حالة القطيعة بينها وبين الشعب إلى حد يصعب وصلها. ما كرس انعدام الفرص لأية حلول سياسية أو تسوية مع النظام القائم، أليس من البديهي أن يفضي هذا التوغل في الدم والفتل إلى موقف حدية لا تقبل المساومة أو الحلول الوسط؟!

أخيراً، ثمة مسافة أخرى، فالوضع اليمني طوقة دول الخليج العربي ويشكل جزءاً من استقرارها وتهتم كثيراً بمنع انزلاقه إلى مزالق خطيرة، تجلّي الأمر بداية في المبادرة الخليجية، ثم دور دول التعاون الخليجي في احتضان الحل ورعايته المفاوضات وفي لعب دور الوسيط الداعم للشعب اليمني وتقديم العون بعد التدهور الحاد للأوضاع الإنسانية وانعدام الخدمات، وإذا أضفنا حصول إجماع دولي تام على أهمية التغيير في اليمن ونجاح مجلس الأمن في اتخاذ قرار يدفع نحو ذلك، يمكن أن نقف عند أهم الأسباب التي عزّزت الضغوط على الفئة الحاكمة وسهلت التوافقات بين مختلف الأطراف.

بينما يتحكم في **الخصوصية السورية ارتباطها محور إقليمي**، يبدأ بإيران مروراً بحلفائها في العراق ولبنان، وتجاهد أطرافه مجتمعة للحفاظ عليه متماسكاً وقوياً، ما يعني صعوبة القبول بتغيير في سوريا أو تقديم تنازل يمكن أن يمس المستوى الراهن لنفوذ هذا المحور، أو لا يأخذ في الاعتبار مصلحة طهران التي تدعو إلى إشراف إقليمي على الوضع السوري وإلى مشاركة فعالة في معالجته!

وأيضاً خلافاً للوضع اليمني، ثمة كيان صهيوني على الحدود السورية، وإسرائيل كلمة قوية حول التطورات في بلد يجاورها وتحتل جزءاً من أرضه وحافظ نظامه على جبهة الجولان آمنة ومستقرة طيلة عقود، بما في ذلك خشيتها من احتلال وصول سلطة جديدة إلى الحكم تهز الاستقرار الراهن.

هذا التعقيدان أثراً بقوة على جوهر الموقف الدولي والإقليمي ومدى جديته من الحديث السوري، فلم نشهد إجمالاً أممياً يقف مع التغيير في سوريا، بل لا تزال السياسة الروسية، وبدرجة أقل الصينية، تعيق هذا التوجه في مجلس الأمن، وأخيراً في مؤتمر جنيف لمجموعة الاتصال حول سوريا، مثلاً لا تزال المواقف الأوروبية والأميركية والتركية متربدة ومتلكة ولم ترق عملياً إلى مستوى الحديث وما يعيشه الشعب السوري مقارنة مع مواقفها من التجربة اليمنية، ما منح السلطة الحاكمة هامش مناورة تستند إليه لرفض أي حلول سياسية وللاستمرار في التسوييف والمماطلة وتاليًا التوغل أكثر في القمع والتنيكيل!

لقد فرض الحل اليمني من الخارج وساعدت على تنفيذه عوامل داخلية ذات صلة، لكن تبدو التعقيدات الداخلية للوضع السوري وارتباطاتها الإقليمية عائقاً أمام ذلك، هذا رغم ما بدأنا نلمسه اليوم بأن المصلحة الروسية لا تتعارض مع التضحيات بعض الشخصيات المسئولة في قمة الهرم مقابل الحفاظ على النظام في سوريا وديمومة مصالحها، وأيضاً لا تخرج المصالح الغربية والعربية عن هذا الهدف، مما يهمهم هو الحفاظ على هيكل الدولة والنظام لضمان الاستقرار ومنع الفوضى والاستمرار في محاصرة المجموعات الإرهابية المتطرفة.

ويبقى أن استمرار الثورة السورية هو العامل الحاسم في إحداث التغيرات الداخلية المطلوبة وفتح طريق التغيير السياسي، فعجز النظام عن محاصرتها وكسر شوكتها سوف يزيد من تفكك مؤسساته وآلته الحربية وأعداد المنشقين واتساع المناطق التي تخرج عن السيطرة، وتاليًا حصول تحول نوعي في موقف الفئات السلبية أو الصامدة، تشجعها على وضع ثقلها في الميزان والدخول على خط التغيير، بما في ذلك احتمال تبلور قوى من داخل تركيبة النظام نفسه تزداد قناعة بضرورة المعالجة السياسية وبعجز الحل الأمني والعسكري عن إحداث أي تحول، لتنطح بداية ربما للمنازعة والمشاركة في اتخاذ القرارات ثم المبادرة عند اللزوم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

صحيح أن استمرار المشهد السوري على هذه الصورة المأساوية لم يعد ممكناً، خاصة أن تتصرف النخبة الحاكمة كأنها لا

تأبه بالموافق الدولي والعربـية وتطـلـق كل ما لديها من أسلحة الفتـك والتدمـير دون حـساب للعواقب، وصـحـيـحـ أنه لا يزال أمـراـ صـعـبـاـ جداـ فـرـضـ الـحلـ الـيـمـنـيـ فيـ سـورـيـاـ منـ الـخـارـجـ حتىـ لوـ تـحـقـقـ إـجـمـاعـ دـولـيـ حولـهـ، لـكـ الصـحـيـحـ أـيـضاـ أنـ لـهـاـ الـحلـ، إنـ أـنـجـزـ، حتىـ وإنـ كانـ لاـ يـرضـيـ قـطـاعـاتـ منـ الشـعـبـ الثـائـرـ وبـعـضـ القـوـىـ المـعـارـضـةـ، فـوـائـدـ مـتـنـوـعـةـ، فيـ وـقـفـ نـزـيفـ الدـمـ وـتـخـفـيفـ هـذـهـ التـكـلـفـةـ الـبـاهـظـةـ الـتـيـ تـخـلـفـهـ آـلـةـ الـقـمـعـ، وـالـأـهـمـ دـورـهـ فيـ طـيـ صـفـحةـ الـعـنـفـ وـمـنـطـقـ الـقـوـةـ وـالـقـهـرـ وـالـغـلـبـةـ لـصالـحـ لـغـةـ السـيـاسـةـ، وـالـبـدـءـ بـتـهـيـئةـ الـأـجـوـاءـ لـتـقـرـيـبـ الـفـئـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ دـاخـلـ الـوـطـنـ الـواـحـدـ، وـالـتـيـ باـعـدـتـ بـيـنـهـاـ، نـفـسـيـاـ وـمـسـلـكـيـاـ، ظـرـوفـ الـحـربـ وـالـدـعـایـاتـ الـمـغـرـضـةـ، ماـ يـمـهـدـ الـطـرـيـقـ لـمـصـالـحـةـ وـطـنـيـةـ عـلـىـ قـاـعـدـةـ تـلـبـيـةـ حـقـوقـ النـاسـ وـمـطـلـبـهـمـ الرـئـيـسـ فـيـ إـزـالـةـ الـاستـبـادـ وـبـنـاءـ الـدـوـلـةـ الـمـدـنـيـةـ الـدـيمـقـرـاطـيـةـ.

المـصـدـرـ: الـجـزـيـرـةـ نـتـ

المـصـادـرـ: